نصوص روائية

قناديل ملك الجليل

إبراهيم نصر الله

تقديم

في القرن الثامن عشر، وعلى ضفاف بحيرة طبرية وفي جبال الجليل ومرج بني عامر، بدأ رجل من عامة الناس رحلته، نحو أكبر هدف يمكن أن يحلم به رجل في تلك الأيام: تحرير الأرض وانتزاع الاستقلال وإقامة الدولة العربية في فلسطين، متحدّيا بذلك حكم أكبر دولة في العالم آنذاك (الدولة العثمانية) وسطوتها المنبسطة في ثلاث قارات: أوروبا، آسيا وأفريقيا. كان اسمه: ظاهر العُمَر ١٦٨٩-١٧٧٥

***

عندما كنت منشغلا بالبحث عن مصادر لروايتي (زمن الخيول البيضاء)، عثرت على عدد من الدراسات الصغيرة، المتفرقة، عن ظاهر العُمَر الزّيداني، لكنها لم تكن كافية لتشكيل صورة وافية عن هذا الرجل ومشروعه التحرّري العظيم. وفي يوم من أيام كانون أول ديسمبر من عام ١٩٩٧، وفي افتتاح معرض فني في عمّان، التقيت بالمهندس زياد أبو السعود، الذي تفضل بأهداني كتاب (ظاهر العمر – كتاب يتناول تاريخ الجليل خاصة، والبلاد السورية عامة) لمؤلفه توفيق معمَّر

إبراهيم نصر الله، شاعر وروائي من فلسطين.

المحامي؛ وحين قرأت الكتاب، قرأته وفي ذهني الإفادة منه في كتابتي لزمن الخيول..، فقد رسختْ بعض أحداثه في داخلي بقوة؛ بل إنني فكرت أن أستند إلى بعض حوادثه، ذات يوم، لأكتب مسرحية!

لكن ما حدث، أن أيا من أحداث هذا الكتاب، لم تُستخدم في تلك الرواية! كما أن المسرحية لم تُكتب! أما أفضل ما حدث، فهو أن ظاهر العُمَر راح يتسلل إلى داخلي، وبدأ يأخذ صورته على مهل.

كان الخوف الوحيد الذي يسكنني هو أنني إذا ما كتبت رواية عن شخصية تاريخية حقيقية، فإنني سأكون مقيّدا إلى حد كبير! لكنني حين قرأت سيرتيه المقتضبتين اللتين كتبهما ميخائيل الصبّاغ وعبّود الصبّاغ، بدأت أصبح أكثر جرأة. وحينما أنهيت بحثي، حوله، والذي استغرق عاما كاملا، وبدأت أشكل رؤيتي الخاصة لهذه الشخصية، قلت لنفسي: لم لا. فلتذهب إلى القرن الثامن عشر لتعيشه. إنها فرصة قد لا تتكرر! ولتتعلّم أيضا كيف يمكن أن تكون حرّا وأنت تكتب عن شخصية تاريخية بهذا الوزن. وهذا ما كان!

ما يحزنني الآن، أنني لم أتعرف إلى هذه الشخصية العظيمة مبكرا، وما يحزنني أكثر أنها شخصية شبه مجهولة لدى قطاع كبير من الناس، في فلسطين وخارجها؛ لقد كانت هذه الشخصية الفريدة تستحق أن تلتفت إليها الأعمال الروائية والسينمائية والتلفزيونية منذ زمن بعيد، لكي تكون جزءا مضيئا لوجداننا الشعبي والمسيرة النضالية لهذا الشعب الذي عمّر هذه الأرض، أرض فلسطين، ما بين البحرين (بحيرة طبرية: بحر الجليل) و(البحر المتوسط: بحر عكا).

أنا على يقين أننا لو عرفناه بصورة وافية من قبل، لكنّا الآن أجمل!

كما إنه لمن المحزن أن نكتشف أن أول محاولة لإقامة وطن عربي مستقل في الشرق العربي كله، كانت في فلسطين، وعلى يد ظاهر العمر، في الوقت الذي لا يعرف فيه الكثيرون هذا. كما إنها لمفارقة كبرى أيضا، أن يكون هذا الوطن نفسه فيما بعد، فريسة للهجمة الصهيونية التي انتزعته بالخرافة والدبابة والتواطؤ الخارجي والداخلي من بين أيدي أصحابه، مدّعية أن (هذه الأرض كانت بلا شعب، لشعب بلا أرض!)

لا... إنها أرض مليئة بالحياة وتفيض بالحياة!

لقد كانت تجربة كتابة هذه الرواية، تجربة استثنائية، في صعوبتها، وفي حجم المسؤولية التي سيحسّ بها أي كاتب يمكن أن يُقبِل على كتابة رواية عن ظاهر العُمر، أو عن ملك الجليل كما كان

يسـمّى. لكنني خرجت من هذه التجربة إنسـانا مختلفًا؛ إذ أحسست بأن حياتي مع ظاهر العمر، قد أعادت ترتيب روحي من جديد، ووضعت أساسا جديدا ومذهلا لهويتي، وأنا أتتبع تلك الجذور الذاهبة عميقا في أرض فلسـطين: فلسـطين العربية، وفلسـطين الجمال والغنـى الثقافي والروحي والإنسـاني، فلسـطين الطموح لكل ما هو حرّ وجميل وطيب. وإن كان لي من أمل، فهو أن تنتقل كل تلك الأحاسيس التي عشتها إلى قارئ هذه الرواية، لأنني على يقين من أنه، عند ذلك، سيحسّ كم أصبح أفضل!

إ. ن

في ذلك اليوم البعيد

احتضـن عمـر ابنه الرضيع: ظاهر، بيدين مرتعشـتين، ابتعد قليـلا، إلى نهاية ذلك الحوش الواسع، وفي ركن قصيّ من أركان ذلك السور الحجري العالي المحيط بالبيت، قال لابنه: أرجوك لا تمت، فيك من رائحتها الآن، ما ليس في أحد غيرك من أولادي، فيك كل رائحتها. لا تمت.

راقبـت نجمة عمر الزّيداني، المعذّب برحيل امرأته والموت الذي يطوف لاختطاف الوليد؛ لم تستطع قول شيء. كان أكثر ما تتمناه أن تضمّ الوليد إلى صدرها وترضعه، هي التي تعرف أن كل ما فيها من توق لهذا، لن يمنحه قطرة حليب واحدة.

التقـت عينا نجمة بعيني عمر الزيدانيّ، فصفعـتْ نجمة صدرَها، صفعته بكل ما فيها من قوة، ثم أطبقت عليه بأصابعها، تريد أن تقتلعه.

سار عمر نحوها، انحنى وناولها الصغير، ومسَّد شعرها بحنوٍّ حزين.

– أوليس هناك يا رب، من امرأة واحدة يمكن أن يقبل بحليبها؟!

– خذه إلى الناصرة، إلى صفد، إلى عكا، خذه إلى أي مكان، لا بدّ سـيقبل في النهاية بصدر امرأة ويَرضع.

– قطعة اللحم هذه، لن تحتمل مشـقّة الطريـق يا نجمة؛ خذيه، لا أريد أن يموت بين يدي. أرجوك، احتضنيه، أحبيه، أحبيه في ما تبقى له من ضوء.

ما إن أصبح الوليد بين يديها، حتى أشهر عمر سيفه، وبدأ يصيح: أينك؟! أين تختفي؟! سأمزقك؟!

وتبكي نجمة، وترجوه: وحِّد الله.

ويواصل دورانه حولهما صارخًا: لن تستطيع لمسه ما دمتُ هنا! اقتربْ، أرني وجهك، سأمزقك؟ سأريح الخلائق كلّها منك!

ويلوح بسيفه، مقطِّعا الهواء، ممزِّقا عتمة ذلك الغروب بلا رحمة: أين أنت؟ أتجرؤ على قطعة اللحم هذه؟ أين شجاعتك أيها الموت؟ واجهني!

ساعات طويلة دار عمر حول نفسه، إلى ذلك الحدّ الذي لم يعرف أين هو، لكنه لم ينس أبدًا ذلك الذي يقاتله، يتحدّاه.

شيء واحد أعاده إلى رشده من جديد، ذلك الصهيل الخافت لحليمة، فرسه البيضاء، كانت تصهل بخفوت حزين، وتتلفَّت صوبهم. كم مرة صهلت قبل أن ينتبهوا؟ قبل أن يروا مهرتها الصغيرة تدسّ رأسها بين قائمتيها الخلفيتين وترضع؟

نكزت الفرس البيضاء ابنتها فابتعدت، ثم عادت تدور حول أمها محاولة العودة لذلك الضّرع.

في تلك اللحظة، أشرق خاطر ما في قلب نجمة، فوقفت. كانت يد عمر قد تيبَّستْ في الهواء، منهكةً، وبدا كلّ ما فيه مهيئًا لتلقي طعنة عدوّه!

أمسكت نجمة بيده العارية، التي تنتهي بسيف مهزوم، جذبتها، وبيدها الأخرى ناولت عمر وليدَه.

سارت بصمت نحو الداخل، وحين عادت، كان في يدها صحن فخار. رأتها الفرس البيضاء، فصهلت أكثر، كما لو أنها تستحثها على أن تُسرع. انحنتْ نجمة حين وصلتها. قبضت على الضّرع بيد لم يسبق لها أن حلبت فرسًا من قبل؛ يد خائفة من كل شيء. يد مرتعدة لا تعرف ما الذي ستفعله فرس تجد نفسها تُحلبُ كأي شاة أو بقرة. ألقت الفرس عليها نظرة تشجّعها، وبدا لنجمة أن الفرس تهزّ رأسها راضية تماما بما يحدث.

كان الحليب نقيًّا مثل قمر صغير بين يديها. سارت نحو عمر، تجاوزته للداخل.

غرس سيفه في الأرض. احتضن وليده بيديه الاثنتين، ومضى، يتبع نجمة، باتجاه الأمل الأخير.

***

المفاجأة التي لم يتوقّعها أحد، أن جوع الوليد انفجر دفعة واحدة. ففي الوقت الذي توقّعوا فيه أن يزمّ فمه، ويغلقه بإحكام –كما أغلقه أمام ثدي كلّ امرأة حاولت إرضاعه – راح يتحسّس شفتيه بطرف لسانه الأزرق الصغير. كانت رائحة حليب حليمة أقوى من أن تُقاوم. شرب كل ما في الصحن. وحين همّ عمر الزيداني بالنهوض لإحضار كمية أخرى، امتدّت يد نجمة إليه، وضغطتْ على ركبته؛ فجلس.

نام الوليد أخيرًا، كانوا يحدّقون في ذلك الوجه الصغير، والعينين اللتين لم تعثرا بعد على لونهما، كما لو أنهم يصلّون.

ومنذ ذلك اليوم بدأت نجمة تنظر إلى مخلوقات الله كلها بعين أخرى.

***

في الصباح، كانت نجمة وعمر الزيداني وأبناؤه، غارقين في نوم عميق، بعد ليال من أرق لا يتمنّونه، حتى، لعدو!

على صوت الوليد استيقظوا، واحدًا بعد آخر، كأنهم أموات والحياة تدعوهم. اعتدلوا، واحدًا بعد الآخر، وكلّهم يحدِّقون في الجهة التي يجيء منها الصوت، حيًّا كأنه الحياة كلّها. وفي تلك اللحظة، سمعوا صهيل حليمة. سمعوا الصهيل ذاته، الذي لم يسبق لهم أن سمعوه قبل أمس؛ فالتفتوا نحوه، كما لو أن الصهيل يُرى.

حملتْ نجمةُ الصحن، مضت إلى الرّكن، غسلته جيدًا، ثم خرجت. تصاعد صهيل حليمة فرَحًا. وما إن اقتربت نجمة منها حتى نكزت الأم المهرة الصغيرة بقدمها فابتعدتْ، مفسحة المجال لنجمة لكي تحلبها.

سارت نجمة نحو الرأس الأبيض الجميل المضاء بعينين رحيمتين، وقبَّلتْ جبهةَ الفرس، ثم ربّتت على عنقها، وظلَّت يدها تمسد ذلك الجسد المشدود إلى أن لامست الضرع، وعندها انحنت وراحت أصابعها تنقبض وتنبسط برقّة عالية.

راقب عمر نجمة بهدوء، وقبل أن تنهي ما تقوم به، لاحت منه نظرة إلى سيفه

المغروس في الأرض، سار نحوه، انتزعه، ثم نظر إلى السماء، وقال: أنتَ وحدك الذي يفهم ما فعلته، أنتَ وحدك، لا سواك، فاغفر لي.

سهل واسع أصفر

تذكرت نجمة تلك الليلة، عندما افتقد عمرُ الزيداني ظاهر وسأل عنه، لكنه لم يعثر له على أثر.

بعد يومين جاء من يقول له: هناك من رآه في (البَعْنَة).

– وما الذي يفعله في البعنة ووزير صيدا يحاصرها؟!

***

كان الموت وحده يطوف في البلدة. أمضى ظاهر الليل يفكِّر في ما سيفعله الوزير به، فهو وإن صفح عن الجميع، لن يصفح عنه لتماديه في شتمه.

كان الهروب من فوق الأسوار مغامرة مكشوفة، رغم معرفته أن الجنود سينامون مطمئنين في ليلة كهذه، ليلة يعقبها استسلام البلدة.

قبل أن يبزغ الفجر بقليل، سمع ظاهر طرْقًا خفيضًا على الباب. للحظة حضر وجه صاحبه عباس. أشرع الباب، فوجئ بامرأة غريبة تقف هناك. وقبل أن يقول شيئًا، سألته ذلك السؤال الذي أمضى الليل يوجّهه لنفسه: أتعرف ما الذي ينتظرك أيها الشاب الشجاع؟!

– نعم، أعرف، ضربة سيف تطير رأسي!

– اتبعْني إذن. فلعلِّي أخلصك من هذا الوزير الظالم.

– آخذ صاحبي عباس معي إذن.

– لا تقلق على عباس. فالوزير الجالس هناك ينتظر وصول رأسك لا رأسه.

جرَّته من يده، فقال: لحظة. لبس حذاءه وتناول سيفه وقوسه وتبعها.

ظلّت المرأة تسير أمامه إلى أن وصلتْ إلى بيت بمحاذاة السّور، فتحتْ بابه

ودخلت. ارتبك ظاهر؛ فما الذي تريده وهي تنقله من بيت إلى بيت؟!

لاحظت ارتباكه، فقالت له: لا تقف هكذا، ستفضحنا. اتبعني.

تبعها.

سبقته، ودون أن تضيّع لحظة واحدة، انحنت تحاول إبعاد صندوق كبير بجوار الحائط، في الوقت الذي التفتت فيه إليه: ما الذي تفعله؟! مدّ يدك وساعدْني.

أبعدا الصندوق.

فوجئ بممر أسود بلا نهاية.

– تدخلْ من هنا، وتسير حتى آخره. ستجد نفسك في كرْم زيتون. تأكّد من أن أحدًا لن يراك، فهذا السِّرداب لروحك ولأرواح غيرك. وحين تتأكّد من أنك في وضع آمن، لا تقف قبل الوصول إلى بلدك. مع السلامة. وناولته قنديلا صغيرًا.

في ذلك الامتداد الذي لا تبدد وحشته سوى شعلة قنديل، زحف طويلا. وبين حين وحين، كان رأسه يصطدم بسقفه أو بأحد جانبيه.

لكن السرداب لم يكن ينتهي، كما لو أنه رحلة لا نهاية لها نحو باطن الأرض لا نحو سطحها!

بعد زمن لا يعرف طوله، انتهى السرداب بضربة قاسية أسالت الدَّم من جبهته. سقط القنديل من يده، وبسرعة، استطاع أن يعدّله من جديد.

حمد الله أنه لم ينطفئ.

نظر خلفه، فلم ير سوى كتلة صلدة من عتمة لم ير مثلها من قبل. امتدَّت يده، تحسس سقف نهاية السرداب، فأدرك أن هناك عدة عوارض خشبية صغيرة فوقه مباشرة.

وضع القنديل جانبًا. ألصق كتفيه بالعوارض، وبرفق بدأ يدفعها إلى الخارج. أبصر شعاعًا رماديًا باهتًا يتسرَّب برفق، ومعه يتسرب خيط من تراب. أخذ نفسًا عميقا، وأرخى أذنيه محاولا التقاط صوت، ما، يأتي من الخارج.

كلّ شيء كان هادئا.

انتصب أكثر، فاندفع ضوء الفجر الشاحب داخل مخرج النفق، وانساب تراب

كثيف أوشك أن يطفئ شعلة القنديل.

ومرّة ثانية توقّف، محاولا التقاطَ صوت ما.

الهدوء كلّه.

أصبح رأسه خارج السرداب، تأكّد من خلوّ المنطقة كلّها. انزلق من بين العوارض. حزّت أحداها ظهره بعنف. خرج.

داميًا كان، معفّرًا، ومتعبًا، ولا شيء ينقصه مثل الهواء.

ملأ رئتيه به، مرّة وثانية وعاشرة.

أعاد كلَّ شيء إلى ما كان عليه، وتأكّد من أن مخرج السرداب قد أُخفيَ تمامًا.

مسَّد الأرض ثانية براحتيه، وابتعد بحذر على أربع: وجهه لباب النّفق، وكلما رجع قليلا مسح آثاره، إلى أن وصل إلى سنسلة الكرْم. استرق نظرة باحثًا عن موقعه، فرأى البعنة بعيدة، وحولها يطوف جنود الوزير يرقصون فرحًا باستسلامها بعد ساعات.

كان لا بدَّ من أن يبدأ المرحلة الثانية من هروبه، قبل بزوغ الشمس. حدد مساره، بما يضمن عدم رؤية جسده، وانطلق.

***

التعب والجوع اللذان نخرا جسده أربعين يومًا، طوّحا به أخيرًا، في أرض ما، فارتمى منهكا تحت شجرة بلوط كبيرة.

كان أكثر ما يخشاه، أن يعرفه أحد ممن سمعوا بالجائزة التي أعلن عنها الوزير؛ يمسك به، يقطع رأسه، ويحمله إلى ذلك الصِّوان ذي الأعمدة المذهبة.

انتفض فجأة، وقد استيقظ من نومه. كان هنالك أحد الفلاحين، يتأمّله، تحت شمس الظهيرة الحارقة!

خبر استسلام البعنة كان قد انتشر؛ وقد حرص الوزير على انتشاره، لأنه كان يريد أن يسبقه إلى صيدا وصفد ودمشق وعكا وحيفا ويافا والناصرة وطبرية.

– مـا الذي فعلتَـه لتكون متعبًا إلى هـذا الحدّ؟! لقد أمضيتُ سـاعتين بجانبك وأنت لا تحسّ بي. قال الرجل.

– أنا غريب عن هذه المنطقة، وقد كانت طريقي طويلة قبل أن أصل إليك!

– أصدقني عن حالك، فإن كنتَ قادمًا من البعنة فطمّني.

حدّق ظاهر في التراب محاولا إخفاء عينيه: لقد استسلم أهلها صباح هذا النهار يا والدي.

– سمعتُ هذا، ولكنني لم أصدِّقه. وبدأ الفلاح يبكي بحرقة.

– ما الذي يبكيك يا والدي؟! ألك أخوة أو أقارب هناك؟

– لا، ليـس لـي أقارب فيها أبدًا، ولكنني أبكي ذلـك الفتى، ظاهر العُمَر، الذي وصلتْ أخباره إلينا، وأخبار الجائزة التي خصصها الوزير لمن يأتيه برأسه! وقد علمنا أن ليس له شفاعة، فقد قال الكثير بحقّ الوزير، بحيث لا يمكن أن يعفو عنه. ليتني عرفت ظاهر هذا يا ولدي، قبل أن يُمسك به الوزير!

– أنا هو ظاهر يا والدي!

لم يستوعب الفلاح ما سمعه، فسأله: ماذا قلت؟!

قلت: أنا ظاهر يا والدي.

بكي الفلاح أكثر.

– دموعك الآن يا والدي أغزر من دموعك التي سكبتها قبل قليل.

– دموع الفرح يا ولدي، دموع الفرح.

استجمع الفلاح حواسّه من جديد، وقف، وراقب المكان، وحين تأكد من خلوه، قال لظاهر: هيا، اتبعني، هنالك مكان آمن سأنقلك إليه.

ليلة الانتظار

فتح ظاهر عينيه في ذلك الصباح فوجد إخوته فوق رأسه، ولولا أن سيوفهم كانت في أغمادها، لظنَّ أنهم قاتلوه!

– تنام ليلك الطويل وتتركنا في حَيرتنا. قال سعد.

فرَكَ ظاهر عينيه بظاهر يده اليمنى: هل وصلتم إلى حلٍّ؟ سألهم.

– لم نصل. قال صالح.

– بل وصلنا. الليلة سنشعل القناديل. قال سعد.

***

كانوا يدركون أن الدَّولة تُربي متسلِّمي الميري، كما يربون، هم، الخراف المخصصة للذبح. تطلق الدولة أيديهم، ليحصِّلوا ما لها، وتغضُّ أعينها عما يقتطعونه ظلما من الفلاحين؛ وحين تتأكد أن ما جمعوه أصبح أكبر بكثير من ذلك الذي دفعوه لها من مال، ترسل من يتخلَّص منهم ويستولي على كل شيء!

لم يكن عمر الزيداني من ذلك النوع، إذ أدرك أن أهمَّ ما يمكن أن يفعله هو أن يحافظ على طبرية ومن فيها، وأن يدفع ما عليه للدولة، وألا يترك لها فرصة كي تنقضّ عليه طمعًا.

كان سعد ويوسف وصالح ينظرون إلى ما حولهم، ويرون المتسلِّمين يزدادون غنى، حتى أولئك الذين كانوا أكثر ورعًا وقناعة. أن تُطلق يد شخص، ما، حرَّة، دون رقيب، ستكون النتيجة واحدة دائما، فليس ثمة حدّ لجشع القوة.

***

– إذا استطعنا أن نقنع ظاهر بأن يكون الواجهة، فسيكون بوسعنا أن نفعل ما نريد، دون أن يطمع بنا أحد، ففي النهاية، هو ليس أكثر من فتى. قال يوسف.

– أظن أنكم تبخسونه حقه بنظرتكم هذه. ظاهر صغير، لكنه ليس ضعيفًا، تعرفون ذلك. قال صالح.

– لم يبق لدينا سوى حل واحد: القناديل. قال سعد.

– ولكن عليكم أن تنتبهوا، إذا كنتم تفكرون بخداعه، فهذه لن تمرَّ عليه أيضًا.

***

في صدر بيت أبيهم، كانوا ينتظرون، حين دخلت نجمة تحمل أربعة قناديل فوق صينية كبيرة، وضعتها أمامهم، وجلست تراقب.

لم يجرؤ أي منهم على الطلب منها مغادرة الغرفة.

بعينيها الحادّتين، راقبت صالح يقطع الفتيل الذي ناولته إياه إلى قطع أربع متساوية؛ وحين انتهى، امتدّت يده إليها لتتأكد من صحة ما قام به!

تفحّصت الفتائل الصغيرة، زمّتْ عينيها، هزَّت رأسها موافقة، ووضعتها في قبضتها، تاركة أحد جوانبها بارزًا، فاستلّ كلٌّ منهم فتيله.

بعد قليل كانت الفتائل قد وضعت في مكانها داخل القناديل.

خرجت، من وسط صمتهم، وعادت وعبرت ثانية وفي يدها شعلة نار: عصىً طويلة يغطي القطن المغمس بالزيت رأسها، وشعلتها تتأرجح مطلِقَة خيطًا من دخان كثيف.

امتدّت يدها إلى سعد، فأشعل عودًا في يده، ثم إلى يوسف، صالح، فظاهر، وبرأسها أعطتهم إشارة أن يشعلوا النار في اللحظة نفسها، ففعلوا.

حملتْ شعلتها وغادرت الغرفة، فقد كانت تعرف أنّ وقتا طويلا سيمضي قبل أن تنطفئ الشّعلة الأولى، وتتلوها الثانية فالثالثة فالرابعة.

***

نصف السّاعة الأول مرّ، كما لو الشُّعَل قد أضيئت قبل لحظات.

كان بمستطاع أيّ منهم أن يلتفت يمينا أو شمالا، أو ينظر صوب أيّ من إخوته دون خوف، فقد كانت القناديل في عزِّ اتقادها.

بدا سعد الأكثر هدوءًا، حين رفع يده وعبث بلحيته الصغيرة مرتين باطمئنان غريب. أما ظاهر، فقد كان في مكان آخر، يرى ما أمامه ولا يراه. وفجأة، سمع صوت نجمة: أنت وحدك القادر على تنظيم أمور طبرية، أقول هذا لأنني أعرفك. صدّقني.

التفت ظاهر إلى مصدر الصّوت، لكنها لم تكن هناك.

***

خطوة إشعال القناديل، كانت آخر ما يمكن أن يلتجئ إليه الناس حينما يختلفون؛ حين يكون هناك أمر عظيم فيه ملامسة لأطراف الموت، لاختيار ذلك الذي ستنطفئ شعلته أولا، الذي يعتقدون أن حظه يقول إنه لن يعيش طويلا! ولذا، فإن عليه القيام بالمهمّة الصعبة، المهمة الأصعب. ومن تنطفئ شعلته بعد ذلك، يكون من سيعيش أطول، ومهما كان عدد المختلفين في أمر يكون عدد القناديل مساويًا لعددهم.

مع اقتراب منتصف الليل، تغير كلّ شيء، العيون تحدّق في الشُّعَل المتراقصة أمامها، دون أن تستطيع اختراق فخّارة القنديل لمعرفة ما تبقّى فيها من زيت.

تعبت أعينهم، الظلمة مُحْدِقة بهم، والأشعة تزداد نفاذا، بحيث تلامس مؤخرات رؤوسهم.

أكثر خوفا باتوا. يعرفون أن النتيجة حاسمة، وأنهم لن يستطيعوا تغييرها بعد أن تظهر.

رفع ظاهر عينيه ونظر إلى إخوته؛ كم كانت ملامحهم قد تغيّرت. كم أصبحوا أناسا غيرهم، لا يشبهونهم أبدًا! وفي لحظة غامضة، تسلل إليهم ذلك الحسّ الغريب: إنهم يلعبون لعبة حياتهم كلّها، وإن المسألة قد تجاوزت مسألة ترك الأقدار لتختار واحدًا منهم ليقوم بعمل المتسلِّم، بل أصبحت لحظة وداع لمن سيموت منهم أولا، ومن سيليه!

خوف ما، باردٌ وقارص، اعتصرَ أفئدتهم، فأحسوا بالموت فوق أكتافهم، كما لم يحسوا به من قبل.

حين تأرجحت الشّعلة التي أمام ظاهر، ارتجفتْ أرواحهم بإحساس غريب، مختلط، وحشيّ ومكسور.

عادت شعلته فاستقامت، وبدتْ أكثر اتّقادا من أيّ شعلة أخرى، فلم يدروا بماذا يحسون!

« هل سيموت ظاهر قبلنا؟! إنه لم يعش بعد! » همس صالح لنفسه، وبدا مستعدا

في تلك اللحظة لإطفاء شعلته بين إصبعيه؛ لكن شعلته تأرجحت وبدت على وشك الالتحام بالظلام. فأحس بقلبه يثب من صدره. نسي شعلة ظاهر، وتجمّدت عيناه فوق شعلته.

***

تناولتْ نجمة عباءتها، لفَّتها على نفسها وخرجت حافية كعادتها. نظرت صوب الغرفة التي هم فيها، لم يأتها سوى برد الصمت الذي ضاعف من برودة تلك الليلة. نظرت إلى السماء كانت صافية، وفي ساحة البيت كان باستطاعتها رؤية بقعة الماء الصغيرة وقد تحوّلت إلى جليد.

صهلت حليمة، صهلت كما لو أن صهيلها دعاء، فارتجف قلب نجمة. قطعت ساحة البيت وسارت إليها، قبَّلت جبينها، وهمست لها بكلمات تطمئنها.

طويلا ظلّت بجانبها هناك، إلى أن أحسّت بقدميها تتحوّلان إلى لوحَي جليد. بصعوبة انتزعتهما من الأرض، ربّتت على عنق حليمة، وعادت إلى غرفتها.

***

مثلهم، كانت الشُّعَل الأربع تلفظ أنفاسها الأخيرة، هم الذين باتوا على وشك معرفة ترتيب وداعهم لهذه الدنيا بعد قليل!

مالت شعلة ظاهر، اعتدلت، ثم سقط رأسها في الظلام.

رفع رأسه.

كانوا قد تحوّلوا إلى شبه أموات.

قال: انتهت اللعبة، وفزتم!

لكن صمتهم أنبأه أنهم يريدون معرفة النتيجة كلها، يريدون معرفة متى سيموتون، وقد تحوّل موت كل منهم إلى ساعة تعلن موت من سيليه!

بهدوء، أدار ظاهر لهم ظهره، تاركًا الشُّعَل خلفه تلفظ أنفاسهم!

لسبب ما، كان مشغولا بشيء واحد: ما الذي سيفعله غدا!

حين نهضوا آخر الأمر مربِّتين على كتفه، في طريقهم إلى الباب، في طريقهم لذلك الضوء الذي بدأ يتسلل من الخارج، كما لو أنه يتسلل لهم وحدهم، سأله

سـعد: ألا تريد معرفة من انطفأت شـعلته بعدك؟! ومن انطفأت شعلته بعده؟ ومن انطفأت شعلته في النهاية؟!

ظلَّ صامتا، وحين قال سعد، وقد اطمأنّ لصمته: أول شعلة انطفأت كانت...!

قاطعه ظاهر بصوت كم كان يشبه صوت أبيهم: الذي تستطيع اللحاق به ماشيًا لا تركض خلفه!

صمت سعد. خرجوا، وقد أحسوا بأن ذلك الفتى تغير تمامًا.

***

سـمعت نجمـة خطاهم تبتعد. خرجت. أمسـكت ظاهر من يده، وسـارت به نحو غرفته. أوصلته إلى فراشه. سوّت مخدته. استلقى بهدوء، كان متعبًا:

– أنت وحدك القادر على تنظيم أمور طبرية، أقول هذا لأنني أعرفك. صدّقني.

أحس بأنه يسمعها تقول وهي تبتعد.

– رفع رأسه وسألها: هل قلتِ شيئا؟

– نم الآن، لدينا الكثير الذي يمكن أن نقوله فيما بعد.

***

بعد أن اسـتيقظ وتناول طعام إفطاره ظهرًا! وقفت ونظرت إليه، كما لو أنها تذكّرت شيئا ما كان عليها أن تنساه. ثم قالت: اتبعني!

بسرعة أدرك ظاهر ما الذي نسيته، فنهض.

ظـلَّ يسـير خلفها إلى أن وصلا تلك الفسـحة الواسـعة مـن الأرض التي كانت ميدانا لسباق الخيول. نظرت خلفها، فوجدته يخلع حذاءه. ابتسمت. انتظرته حتى وصـل. أغمضـت عينيها، وأغمض عينيه، وراحا يسـيران في تلك البقعة الواسـعة حافيين. انشـغل ظاهر باستعادة أول مرّة جاءت به إلى هذه الساحة، وكلما تذكرها، انشغل بتذكّرٍ مرةٍ أخرى قبلها!

قالت له وكأنها تقرأ أفكاره: لقد خطوت خطواتك الأولى هنا، لم يكن هناك من بقعة في طبرية أفضل من هذه كي تسير حافيا فوقها، فهنا الأرض مليئة بالخيول! لا تحاول استرجاع ما مرّ، وكلّه فيك الآن! أنت بحاجة لأن تسير اليوم فوق هذه الأرض

وأن تحسّـها، وتحس بكل الخيول التي عدت فوقها، أنت بحاجة لأن تتشـربهما معًا، فالطريق أمامك طويل!

بعد زمن هزّته. فتح عينيه: هذا يكفي! لا أريدك أن تتحوّل منذ الآن إلى حصان، أو حتى إلى جبل، فالطريق أمامك طويل!

فصـول من رواية (قناديل ملك الجليل)، الرواية السـابعة ضمن مشـروع (الملهاة الفلسـطينية)، وتصدر قريبا عن الدار العربية للعلوم، بيروت؛ ودار مكتبة كل شيء، حيفا.